كتب بالإنجليزية

ظهور سلالة فلسطينية وسقوطها: آل الحسيني ١٧٠٠ ـ ١٩٤٨

The Rise and Fall of a Palestinian Dynasty: The Hussinies 1700 - 1948

Ilan Pappe

London: Saqi Books, 2011. 399 pages.

لكتاب بابِه هذا أهمية كبيرة كونه يفنِّد عناصر كثيرة من مكونات الرواية التاريخية للحركة الصهيونية ولدولة إسرائيل، والمتعلقة بصراعهما على الأرض الفلسطينية مع العرب الفلسطينيين، وهو تفنيد مستند إلى وثائق ومصادر عربية وعبرية وإنجليزية، وكاتبه يهودي إسرائيلي كان لمدة طويلة أستاذاً للتاريخ في جامعة حيفا قبل أن ينتقل إلى العمل في جامعة أكستر في بريطانيا.

ويزيد في أهمية الكتاب أنه يعيد الاعتبار إلى الفلسطينيين المقدسيين من خلال تقديم رواية سلسة وممتعة لحياتهم وعلاقاتهم وتحالفات عائلاتهم وهمومهم المجتمعية على مدى قرنين ونصف قرن من الزمان، مناقضاً بذلك الصورة الصهيونية التي نزعت الصفة الإنسانية عنهم وعن الفلسطينيين عامة، ووسمتهم بسمات الإرهاب والوحشية، كما أنه يعيد الاعتبار إلى العائلة الحسينيَّة ورجالاتها، ولا سيما الحاج أمين، حين يشرح خلفيات مواقفهم السياسية، وأنها لم تكن متطرفة كما صورها الصهيونيون، وإنما كانت عقلانية ومنطقية، وكانت تبحث عن أفضل السبل العملية لخدمة قضية الشعب الفلسطيني والحفاظ على بقائه ووجوده على أرضه. ويأخذ الكتاب في تحليله وعرضه للسياسة البريطانية في فلسطين خلال الانتداب موقف الإدانة والشجب لهذه السياسة، وخصوصاً اعتباره سحق القوات البريطانية الوحشي والدموي للثورة العربية الكبرى ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ جريمة حرب.

جديد الكتاب

منهج الكتاب هو متابعة الاهتمام بدراسة العائلة في الشرق الأوسط، وموقعها في البنية الاجتماعية للمجتمع، ليس لدورها السياسي فقط، بل إنه يدرس العائلة الحسينيَّة باعتبارها أهم منظمة سياسية غير رسمية قبل ظهور الحركة الوطنية والأحزاب السياسية، وأنها تمثل نموذجاً للتاريخ الفلسطيني، فاستمراريتها

مدة طويلة دليل على الوجود الإنساني ـ الاجتماعي والثقافي للشعب نفسه، وتطور العائلة الحسينيَّة يبيِّن تطور المجتمع الفلسطيني قبل ظهور الصهيونية وقبل الوجود البريطاني على الأرض الفلسطينية، ذلك بأن فلسطين لم تكن أرضاً خالية، وشعبها لم يكن شعباً خاملاً.

يرفض بابِه مقولة الاستشراق الصهيوني بشأن بداية الانحدار العثماني منذ القرن السادس عشر واستمراره إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، ويطرح بدلاً من هذه المقولة رواية موثقة تبين وجود حياة حافلة ومجتمع حيوي تقوده نخبة أعيان أدت، بحسب ألبرت حوراني الذي يتبنى بابِه تحليله لدور الأعيان في التاريخ العثماني، دور الوسيط بين الشعب والسلطة العثمانية في إستانبول.

ينجح الكاتب في عرض التاريخ الانتدابي كامتداد واستمرار للتاريخ العثماني، وهو يقدم عرضاً جيداً لدور الانتماءات العائلية في التاريخ الفلسطيني منذ العهد العثماني، ويطرح بالتالي تفسيراً مقنعاً لأسباب الصراع الفلسطيني الداخلي خلال الفترة الانتدابية، ويتفق مع مَن سبقوه في دراسة هذا الدور في تبرير العلاقة الحسنة بين الحسينيين ومعارضيهم مع حكومة الانتداب البريطاني، ذلك بأن هذه العائلات اعتادت استمداد النفوذ والقوة من التحالف مع السلطة الحاكمة. ويتتبع الكتاب نمو نفوذ العائلة الحسينيّة منذ عبد اللطيف غضيّة في مطلع القرن الثامن عشر حتى نهاية الانتداب البريطاني، ويشرح تاريخ العائلة منذ تبنّيها لاسم الحسيني بدلاً من غضيّة خلال هذا القرن، ويقدِّم توضيحاً لدور مزارع وعقارات الوقف الإسلامي في ثراء العائلة الحسينية، وارتفاع مكانتها الاجتماعية، ويعرض لنا صوراً حيّة لأفراد من عائلة الحسيني، وميولهم وتطورهم الفكري والسياسي واختلافاتهم وحتى صراعاتهم ونزاعاتهم بعضهم مع بعض، الأمر الذي يُخرج القارئ من دائرة التعميمات الرائجة إلى فهم التفصيلات والتنوع والاختلاف داخل العائلة الواحدة.

يناقش بابِه في الفصل الأول تكوُّن العائلة ونموها خلال الفترة ١٧٠٠ ـ ١٨٠٠، ويتحدث عن الأبعاد السياسية لمنصبَي المفتي ونقيب الأشراف في القرن التاسع عشر. أمّا الفصل الثاني المعنون: "في ظلال عكا والقاهرة: الجيل الثالث"، فيتناول فيه بابِه سعي العائلة لتثبيت نفوذها وسلطتها، ويوضح كيف أدت علاقات الزواج مع الأسر المتنفذة الأُخرى في فلسطين دوراً في تعزيز النفوذ، ومنها علاقتا زواج مع عائلة طوقان في نابلس حدثتا في سنة ١٨١٣. ويتناول الفصل الثالث الإصلاحات العثمانية خلال السنوات ١٨٤٠ ـ ١٨٧٦، ويتطرق إلى عمليات الإعمار التي قام بها العثمانيون خلال هذه الفترة، وسعيهم للإمساك بخيوط السلطة، ويبحث في التراجع الموقت في قوة الحسينيين خلال السنوات ١٨٤٠ ـ ١٨٥٦، ويعرض لتراكم ثروة الحسينيين خلال سبعينيات القرن

التاسع عشر، كما يعرض لسياسات الدولة خلال هذه الفترة.

يحمل الفصل الرابع عنوان: "موت العالم القديم: نحو نهاية العهد العثماني في فلسطين"، بينما يحمل الفصل الخامس عنوان: "مواجهة تركيا الفتاة: العائلة في موقع البيروقراطية الأرستقراطية". ويتناول هذا الفصل الأعوام الأخيرة من الحكم العثماني لفلسطين والتحولات التي جرت خلالها، وتأثيرات ذلك في العائلة الحسينية، وصولاً إلى نشوب الحرب العالمية الأولى. ويخصّص بابه الفصل السادس لمناقَشة التحول في وضع العائلة خلال السنوات ١٩١٧ ـ ١٩٢٠، جرّاء الاحتلال البريطاني للبلد وفرض الحكم العسكري خلال هذه الفترة الزمنية، وقد حمل عنوان: "في ظلال الحكم العسكري البريطاني: من سياسات الأعيان إلى سياسات القومية". وهو يدرس نضال الفلسطينيين من أجل تحقيق الاستقلال، ويتطرق إلى رجالات العائلة الذين شاركوا بفاعلية في تأسيس وقيادة الحركة الوطنية من القدس، ومنهم موسى كاظم والحاج أمين وجمال.

يتناول الفصل السابع الانفجار الأول للعنف في القدس، والناجم عن وعد بلفور، ويتحدث عن الوفود الفلسطينية التي قادها الحسينيون خلال تلك الفترة سعياً لتحقيق أهداف الفلسطينيين: إلغاء وعد بلفور والحصول على دولة مستقلة. ويناقش العنف الذي جرى في القدس في سنة ١٩٢٩، ويعرض للتغيرات في الوضع العام في فلسطين، ويختم الفصل بالحديث عن لقاء الوفد الفلسطيني، برئاسة موسى كاظم باشا، بونستون تشرشل، وما تلاه من الإحباط الذي شعر به الباشا والقادة السياسيون في القدس، والفلسطينيون عامة، وإحساسهم بالعجز أمام الحركة الصهيونية. ويرى بابِه أن هذا الإحساس حال دون أن يعمل الفلسطينيون على مواجهة التحدي الصهيوني، وانشغالهم بدلاً من ذلك بالصراع العائلي الداخلي. ويبحث الفصل الثامن في المفتي الأكبر وعائلته خلال الصراع الداخلي في فلسطين في العشرينيات، بينما يبحث الفصل التاسع في الثورة الفلسطينية الكبرى، وفي صعود نفوذ وقوة المفتي في أعقاب الأحداث، في حين يناقش الفصل العاشر فترة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ التي اضطر خلالها المفتي وعدد من أفراد العائلة إلى اللجوء إلى المنفى، ويعرض لدور العائلة في الصراع المسلّح مع بريطانيا. أمّا الفصل الأخير فيبحث في ثورة الكيلاني في سنة ١٩٤١ ودور المفتي فيها، وينتقل إلى بحث أحداث ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ التي قادت إلى النكبة الفلسطينية.

تفنيد الرواية الصهيونية

فضلاً عن تأكيده أن فلسطين لم تكن أرضاً خالية من السكان، وأن الدولة العثمانية لم تكن متخلفة وفي طريقها إلى الأفول منذ القرن السادس عشر، يبيّن بابِه أن الصهيونيين هم مَن أبدوا عداء مبكراً للفلسطينيين، وعاملوهم

باستعلاء وعجرفة وغرور، مع أن الفلسطينيين تعاملوا معهم مثلما كانوا يعاملون اليهود العرب عادة، وأظهروا لهم الاحترام. ويورد بابِه (ص ٢٠٤) حادثة تدل على عداء الصهيونيين حدثت في سنة ١٩٢٠، وذلك حين رفض أوسشكين مصافحة مفتي القدس محمد كامل الحسيني، الأخ الأكبر للحاج أمين، خلال حفل استقبال هربرت صمويل في دار الحكومة على جبل المشارف بالقدس، وعندما سأله القاضي جاد فرمكين عن سبب رفضه المصافحة ردّ قائلاً: "كيف أمدّ يدي لأصافح رجلاً يمثّل الرأس لأبناء ديانة قاموا باغتصاب بنات إسرائيل" (ص ٢٢٨). ويوضح بابِه أن الصهيونيين هم مَن كانوا يرفضون مبادرات السلام، وليس العرب كما تدّعي الرواية الصهيونية التاريخية. ويذهب بابِه في عرضه إلى إثبات أن الحاج أمين كان يتصل بالصهيونيين ويقيم علاقات اقتصادية مع اليهود، ومن ذلك تأجيره عمارةَ الأوقاف الجديدة (فندق بالاس) التي بُنيت قرب مقبرة ماميلا ليهوديين.

أخطاء الكتاب

لكن المؤلف لم يتجنب الوقوع في شرك المعلومات الخطأ التي يوردها من دون ذكر أي مصدر، علماً بأن لا أصل لها في أي من مصادر تاريخ فلسطين الانتدابية، كما أنه لا يلجأ إلى التحقق من معلومات أوردتها مصادر معينة ولم تكن صحيحة حين مقارنتها بالمعروف والموثق في التاريخ، ويخطئ كثيراً في كتابة الأسماء العربية باللغة الإنجليزية. وكذلك يخطئ الكاتب كثيراً في إحالاته إلى الكتب والمصادر، وأحياناً ينسب أموراً إلى كتب وهي غير موجودة فيها. ومن نماذج تلك الأخطاء:

١ ـ قوله في صفحة ٢٠٨، إن موسى كاظم كان سجيناً في سجن بريطاني، وهذا لم يحدث قط.

٢ ـ قوله في صفحة ٢١٤، إن الشيخ عز الدين القسام فرّ من سورية إلى فلسطين بعد أن قبض عليه الفرنسيون وحكموه بالإعدام، والصحيح أن الفرنسيين لم يتمكنوا من القبض عليه.

٣ ـ قوله في صفحة ٢١٨، إن علي جار الله سحب ترشيحه لمنصب الإفتاء في سنة ١٩٢٠، والصحيح أن الذي سحب ترشيحه هو شقيقه حسام الدين جار الله، أمّا علي فكان قاضياً مدنياً ولم يكن من رجال الشريعة.

٤ ـ قوله في صفحة ٢٢٨، إن راغب النشاشيبي كان مرشحاً لمنصب مفتي القدس في سنة ١٩٢٠. وقوله في الصفحة إياها إن عارف باشا الدجاني كان من يافا، والصحيح أنه من القدس، والمؤلف يناقض نفسه حين يقول في صفحة ٢٣٠، إن عارف الدجاني كان مرشح الحسينيين في انتخابات بلدية القدس في سنة ١٩٢٧، فكيف يكون يافياً ويترشح لبلدية القدس؟ وهنا أيضاً خطأ آخر ذلك بأن مرشح الحسينيين كان جمال الحسيني، في مقابل مرشح المعارضة راغب النشاشيبي، بينما لم يكن الدجاني من المرشحين.

٥ ـ قوله إن فخري الحسيني، شقيق الحاج أمين، توفي مبكراً في الآستانة أواخر العهد العثماني، والصحيح أنه توفي في سنة ١٩٣٥ تحسراً على موت زوجته الشابة.

٦ ـ قوله في صفحة ٢٢٩، إن ثمانية مؤتمرات وطنية عُقدت في فلسطين، والصحيح أنها كانت سبعة مؤتمرات.

٧ ـ قول الكاتب إن أحمد حلمي عبد الباقي كان من الحسينيين، بينما المعروف أنه أرناؤوطي الأصل، وأنه سياسياً كان مقرباً من حزب الاستقلال الذي لم يكن حزباً موالياً للمفتي.

٨ ـ قوله إن انتخابات سنوية كانت تجري للمجلس الإسلامي الأعلى، والصحيح أنها جرت مرتين فقط، في سنة ١٩٢٢، وفي سنة ١٩٢٦، وقد ألغيت نتائج الانتخابات الثانية، ولجأ البريطانيون إلى التعيين.

٩ ـ قوله إن محمد يونس الحسيني عمل في البنك الزراعي في سنة ١٩٣٦ وبطلب من جمال الحسيني، والمعروف أنه كان يعمل في البنك منذ تأسيسه، وأنه كان من المعارضين لكتلة الحاج أمين التي كان جمال من عمدائها، فلا يعقل أن يعمل في البنك بناء على تعليمات من جمال.

١٠ ـ قوله إن العضوين المسيحيين في اللجنة العربية العليا كانا من أنصار الحسينيين، والمعروف أن هذين العضوين كانا: فؤاد سابا، وكان مستقلاً، ويعقوب فرّاج، وكان من حزب الدفاع المعارض للحسينيين.

١١ ـ قوله في صفحة ٢٧٨، قرأوا الفتوى، بدلاً من قرأوا الفاتحة.

١٢ ـ قوله في صفحة ٢٧٨، إن الحاج خليل الطه كان استقلالياً، والمعروف أنه كان من الموالين للأمير عبد الله، ومن المتعاونين مع اليهود ـ الصهيونيين في بيع الأراضي والأمور التجارية، الأمر الذي أدى إلى اغتياله في سنة ١٩٣٧.

١٣ ـ قوله في صفحة ٢٨٥، إن عبد القادر الحسيني هو الذي حسم الخلاف بين أتباع المفتي في القدس في سنة ١٩٣٧ بشأن مغادرته فلسطين، والصحيح أن عبد القادر لم يكن في فلسطين في حينه، بل كان قد فرّ من فلسطين، بعد أن قبض عليه الإنجليز عندما أصيب بجروح في معركة الخضر، كي يتلقى العلاج في سورية، وبقي فيها مدة قبل أن يعود بعد خروج المفتي بفترة.

١٤ ـ قوله في صفحة ٢٨٩، إن منيف الحسيني نُفي إلى جزر سيشل، والصحيح أن الذين نُفوا إلى سيشل هم: أحمد حلمي عبد الباقي؛ يعقوب الغصين؛ رشيد الحاج إبراهيم؛ حسين فخري الخالدي؛ فؤاد سابا.

١٥ ـ قوله إن جريدة "الجامعة الإسلامية" كانت تابعة للإخوان المسلمين، وهذا غير صحيح لأن مؤسسها وصاحبها الشيخ سليمان الفاروقي لم يكن من الإخوان قط، ولأنها توقفت عن الصدور أعواماً عديدة قبل أن تتأسس (في سنة ١٩٤٦) أول جماعة للإخوان المسلمين في فلسطين.

١٦ ـ قوله في صفحة ٢٩٢، إن الشبان الحسينيين ألقوا قنابل المولوتوف على الصهيونيين، والصحيح أن هذه القنابل لم تكن معروفة في فلسطين، وأول استعمال

لها كان في سنة ١٩٣٦ في إسبانيا، قبل أن تُعرف في أنحاء أُخرى من العالم.

١٧ ـ قوله إن الحاج أمين كان الرأس المدبِّر لاغتيال الملك عبد الله، وهذا ما تخالفه وتنفيه جميع المصادر المتوافرة بشأن هذا الاغتيال.

١٨ ـ قوله في صفحة ٢٩٥، إن ميمنة القسام هي أرملة الشيخ عز الدين القسام، والصحيح أنها ابنته.

١٩ ـ قوله في صفحة ٢٩٨، إن عادل أرسلان نشر رسائله التي تحثّ الحاج أمين على التعاون مع الطليان، ويُرجع هذا القول إلى كتاب بوراث، والصحيح أن الحديث يدور عند بوراث عن الرسالة المزيفة التي نسبت إلى شكيب أرسلان، شقيق عادل، والتي زيّفها فخري النشاشيبي ونشرها الشيخ الفاروقي في جريدته "الجامعة الإسلامية"، كما نشرتها جريدة "فلسطين" المعارضة آنذاك، وفيها حديث عن تعاون المفتي وأرسلان مع الطليان.

٢٠ ـ قوله في صفحة ٣٤٦، إن أحمد الشقيري حاول في سنة ١٩٦٨ استرضاء الحاج أمين من خلال داود الحسيني، والصحيح أن الشقيري كان قد استقال من رئاسة المنظمة في كانون الأول / ديسمبر ١٩٦٧، ولم يكن له علاقة بها في سنة ١٩٦٨، وأن داود الحسيني أصبح عضواً في اللجنة التنفيذية للمنظمة في سنة ١٩٦٥، ولم يكن الشقيري يقصد بتعيينه إرضاء المفتي الذي شنّ حرباً لا هوادة فيها ضد الشقيري والمنظمة.

٢١ ـ قوله في صفحة ٣٤٧، إن خالد الحسيني كان شقيقاً لعبد القادر الحسيني، وهذا غير صحيح، فخالد هو ابن شريف الحسيني، بينما عبد القادر هو ابن موسى كاظم الحسيني.

سميح حمودة
باحث فلسطيني،
ومحاضرفي جامعة بيرزيت